مانون ليسكو لبريڤو

بقلم

الدكتورة كوثر عبد السلام

منهج البحث

حياة القس بريڤو ومؤلفاته . قصة مانون ليسكو ، ملخصها وتحليلها وما أتت به من أفكار جديدة . أثرها على الإنسانية . مقتطفات منها .

حياة القس بريفو ومؤلفاته

تعتبر حياة القس أنطوان فرنسوا بريڤو فى حد ذاتها قصة من أطرف قصص المغامرات . ففى بدء حياته التحق بمدارس اليسوعيين ثم انخرط جندياً بالجيش . وفى هذه الفترة من حياته شعر بعاطفة قوية جامحة كادت تحطم حياته .

ولقد بذل الكثير من الجهد لكى ينسى ، ثم ظن أنه واجد السلوى فى التحاقه بكنيسة « البنديكتان » فى عام ١٧٢٠ فالتحق بها وهناك درس علم اللاهوت وقام بتدريس العلوم الإنسانية ، ونصب قساً عام ١٧٢٦ . وقد نجح فى الوعظ نجاحاً كبيراً وكان لخطبه فى هذا المجال صدى عظيم .

ولم يستطع القس بريڤو أن يتغلب على ميله الأدبى للكتابة فأخذ يكتب فى السر « مذكرات رجل ذى مكانة » . وفى عام ١٧٢٧ شعر بأنه قد فقد السيطرة على نفسه ولم يعد يستطيع إرغامها على السير فى الطريق الكهنوتى الذى لم يكن يميل إليه . فهرب من كاتدرائية سان - جرمان - دى - برى . ولما أخذت الكنيسة تلاحقه اضطر إلى الهرب إلى انجلترا ثم إلى هولند . وظل يعيش فى الخارج طيلة سبع سنوات .

وفيما بين عامى ١٧٢٨ و ١٨٣٢ نشر « مذكرات رجل ذى مكانة » فى سبعة أجزاء ، وكذلك « قصة السيد كليفلاند » ، الإبن غير الشرعى لكرمويل ، فى ثمانية أجزاء . كما أصدر مجلة دورية للإعلام والنقد كان هو محررها الوحيد وقد سماها « ما لنا وما علينا » . وفى عام ١٧٣٥ عاد القس بريڤو إلى فرنسا ، والتحق من جديد بكنيسة البندكتان ، وعين مرشداً خبرياً لدى أمير كونتى . واستقرت به سبل الحياة فى باريس . ولقد كان نشاطه الأدبى كبيراً جداً ، وكان لا يكل ولا يمل . فنشر فيما بين عامى ١٧٣٥ و ١٧٤٠ « عميد كليرن » وترجم ثلاث قصص للروائى الإنجليزى الكبير ريتشارد سويد وهى : باميلا (١٧٤٢) ، وكلاربسا هارلو (١٧٥١) و « جرانديسون » التى لم تنشر إلا فى عام ١٧٧٥ . كما بدأ فى كتابة « التاريخ العام للأسفار »

ثم تاريخ آل كوندى . وخلال سنوات حياته الأخيرة فكر فى كتابة سفر كبير عن أمجاد الدين المسيحى ، إلا أنه مات بالسكتة القلبية دون أن يتمكن من تحقيق أمنيته هذه .

ورغم كثرة ما كتب القس أنطوان بريڤو فإن أهم كتاباته والجزء الذى أورثه منها للإنسانية هو الجزء السابع من « مذكرات رجل ذى مكانة » الذى نشر عام ١٧٣١ ، ويحتوى هذا الجزء على : « القصة الحقيقية للفارس دى جريو ومانون ليسكو » . وما لبث ذلك الجزء من المذكرات أن لاقى نجاحاً هائلا فى فرنسا وكانت النساء يختطفنه ويقرأنه وهن يذرفن الدموع مدراراً . ثم أصبح هذا الجزء ينشر بمفرده منفصلا عن بقية المذكرات ، كما كان له أثر كبير على الحركة الأدبية الإنسانية عامة ، كما سنرى فيما بعد .

قصة مانون ليسكو

ملخصها وتحليلها

يعتقد النقاد جميعاً بلا استثناء أن العاطفة الهائلة المحطمة التى تفنن القس بريڤو فى وصفها وأبدع فى نقلها إلى قلوب القراء فى « قصة مانون ليسكو » هى قصة حبه هو الذى صادفه فى مطلع شبابه . فهو يقص فيها قصة حب الفارس دى جريو وعاطفته الجامحة نحو امرأة لا تليق به هى مانون ليسكو ، ثم انحداره معها إلى أحط درجات الخجل والعار . وتفيض القصة بالحقائق الأليمة إذ أن الفارس دى جريو كان يتألم طيلة سير أحداث القصة من حبه ومن ضميره ، فكان يصارع هذا طوراً وذاك أطواراً بلا جدوى كما يقول فى بداية القصة لصديقه تيبرج : « لا بد أيها الصديق العزيز تيبرج أن يكون عطفك على كبيراً أو مبالغاً فى الكبر ما دمت تؤكد لى أنه يعادل آلامى . إننى أخجل من أن أدعك تشاهد تلك الآلام إذ أنى أعترف أن سببها غير مشرف : إلا أن تأثيرها مؤلم لدرجة أن المرء لا يحتاج لأن يحبنى كما تحبنى أنت لكى يتأثر بها »[1] .

وكان دى جريو قد انتهى من إتمام دراسته فى مدينة أميان . وفى الليلة السابقة لمغادرته المدينة والعودة إلى منزل والديه التقى بمانون ليسكو . ولقد بادرت الفتاة بما لها من جمال فاتن صارخ وحركات ماجنة إلى إغرائه وسرعان ما وقع الفتى الغر يتخبط فى شراك إغرائها . واتفقا على الهرب فى عربة الركاب ونفذا الخطة التى رسماها سوياً واستقر بهما الأمر فى باريس . ولم تكن الفتاة فى أول الأمر تحبه ، بل كانت تحب حياة المجون واللهو والملابس الفاخرة والمال الكثير . فأخذت تخونه دون أدنى شفقة ولا رحمة لحبه وإخلاصه وسذاجته . ولما أدرك دى جريو اليأس من إصلاح حالها قرر هجرها واللجوء إلى دير سان سوبليس بحثاً عن السلوى والنسيان . وهناك زارته مانون وتحدثت إليه فى قاعة الاستقبال . وما أن رآها حتى استعرت نار حبها فى قلبه من جديد فأسلم لها قياده وتبعها كالكلب الأمين . وسافر الحبيبان إلى شايو حيث أقاما فترة من الزمن .

وهناك دأب أخو مانون ، وهو شاب مستهتر فاسد الخلق ، على ابتزاز أمواله بلا هوادة ، ثم حدث حريق أكل كل ما كان يملك من مال قليل . فكيف يمكنه والحالة هذه أن يظل محتفظاً بمن يحب وهى التى لا تعيش إلا غارقة فى الذهب ؟ لقد اضطر دى جريو إلى الاستدانة والغش فى اللعب ولكن كل ما كان يكسبه فى اللعب كان يسارع المحيطون به فيبتزونه منه . ولقد حاولت مانون ، بالاتفاق مع دى جريو أن تغش ج . م العجوز الذى سارع بالقبض عليها . وتمكن دى جريو من الهرب من السجن بعد أن قتل أحد الخدم . كما تمكن من مساعدة مانون على الهرب

(١) الجزء الأول ، طبعة كانتنان ص ١٣٥ .

بمساعدة خادم آخر . وحاول الاثنان الانتقام من ج . م العجوز فى شخص ابنه الذى كان ولوعاً بمانون ، وانتهى بهما الأمر إلى أن قبض عليهما من جديد وأودعا السجن .

وأطلق سراح دى جريو ، أما مانون فقد رحّلت إلى لويزيانا . وحاول دى جريو تدبير كمين للعربات التى تحمل اللاتى يتم ترحيلهن إلى لويزيانا ومن بينهن مانون ، إلا أن أعوانه تخلوا عنه فى اللحظة الحاسمة . فلم يكن أمامه إذن إلا أن يتبع مانون إلى نيو أوليانز ، وأن يلتحم فى مبارزة من أجلها يجرها بعدها عنوة هاربين إلى الصحراء الواسعة . وهناك تموت مانون من التعب والإجهاد بعد أن طهر الألم نفسها . ويهيم دى جريو على وجهه أياماً بعد موتها حتى يلتقى بصديقه تيبرج الذى قدم ليعود به إلى بلاده . ويعود دى جريو هكذا إلى فرنسا وقد أصبح هيكلا محطماً .

تعتبر قصة « مانون ليسكو » مرآة تعكس أخلاق الفرنسيين وطبائعهم فى زمن القس بريفو . فقد تميز هذا الزمن بالتحلل من قواعد الأخلاق والتساهل الشديد فى احترام الفضيلة . ونلاحظ أن دى جريو حين ينزل إلى أعماق نفسه ليحاسبها ، وحين يتألم من وخز ضميره ، نلاحظ أنه متساهل مع نفسه أشد التساهل فهو يقول : « لما لم يكن مع كل هذا فى مجمل سلوكى أى شيء يمس شرفى أى مساس ، على الأقل حين أقيسه بشرف الشبان فى بعض الأوساط ، ولما كانت العشيقة لا تعتبر أمراً شائناً فى ذلك القرن الذى نعيش فيه ، ولما كان اللجوء إلى بعض المهارة من أجل استجلاب الحظ فى اللعب لا يعتبر مشيناً . . » .

وهكذا نرى أن فساد دى جريو ما هو إلا جزء من فساد الشبان المعاصرين له ومن فساد القيم الخلقية التى تميز العصر كله . كما يعتبر القس بريفو من أوائل من بادروا بالكتابة عن الهجرة إلى المناطق الحارة البعيدة .

ولقد أفاض فى قصته عن الكتابة عن المهاجرين إلى لويزيانا ، وكان هذا أمراً شائعاً حوالى عام ١٧٢٠ ؛ كما اعتمد فى سرده على قصص حقيقية سمعها من المسافرين إلى تلك الجهات ، وفصل الحديث من ظروف الحياة فى العالم الجديد فى ذلك الوقت تفصيلا . ويعتبر ذلك تجديد فى الأدب إذ من بعده سوف يختار برناردان دى سان پيير « جزيرة فرنسا » التى تسمى الآن بجزيرة موريس مسرحاً لقصته العالمية : « بول وفرجينى » . ويأتى من بعده شاتوبريان فيفيض بكلماته البليغة فى وصف الأراضى الشاسعة والغابات المحيطة بالمسيسبى ، وذلك فى قصته « أتالا » . وبعد ذلك ستظل البلاد البعيدة الحارة حلماً يراود الكتاب الرومانسيين وشعراءهم حتى بودلير الذى يكتب فى قصيدته « دعوة إلى الرحيل قائلا : « يا طفلتى ، يا أختى ، فكرى فى المتعة التى سوف نصادفها لو رحلنا معاً إلى هناك . . » ولم يقتصر تأثير القس بريفو فى هذا الصدد على الأدب الفرنسى بل تعداه إلى الأدب الإنجليزى وغيره من الآداب .

أثر قصة مانون ليسكو على التراث الإنسانى

إلا أن هذا التجديد الأدبى ، رغم ما له من قيمة ، لم يكن هو السبب فى نجاح قصة « مانون ليسكو » وخلودها . فإذا كانت تلك القصة قد أصبحت من التراث الإنسانى الخالد فما ذلك إلا لما تضمنته من وصف للعاطفة التى لا تقاوم والتحليل النفسى العميق للصراع بين الفضيلة والرذيلة ، بين الخير والشر ، بين الروح والجسد .

ولقصة « مانون ليسكو » فى هذا المجال جانبان أحدهما كلاسيكى والآخر رومانسى .

أما عن الجانب الكلاسيكى فقد عثر القس بريفو فى التحليل النفسى على حقيقة إنسانية جعلت قصته تعتبر تحفة من التحف الكلاسيكية . ولقد خلق الجو الملائم لتولد عاطفة جامحة . ذلك أن مانون ، تلك الفتاة

الرائعة الجمال الماجنة الحركات والتى لا تؤمن بأى قيم أو مبادئ خلقية ولا تخجل من التعبير بمختلف الطرق عن شهواتها البهيمية ، ولا تستطيع مقاومة إغراء الجسد أو المال ، مثل تلك الفتاة قد خلقت لتسحر الأغرار من الشبان وتقدر على أن تجعل من شاب برئ مثل دى جريو ألعوبة فى يدها . وها هى فعلا تجعل منه ألعوبة فى يدها تأخذها متى تشاء وتنبذها متى تريد . ويحاول الشاب الساذج أن يقاوم سحرها . وتتنازعه آلام الحب ووخز الضمير ولكن دون جدوى فقد أعماه الحب وأخضعه لسلطانه كما يخضع الكلب الذليل ، وهو يعلم إلى أى درك أسفل ينقاد . لقد ارتكب دى جريو جريمة قتل ، وسرق وغش فى اللعب وسجن ، وهو الشاب ذو الثقافة الدينية الذى نشأ فى بيئة صالحة . وهو يدرك تمام الإدراك بشاعة ما يرتكب من جرم ولكنه يفسر صراعه هذا قائلا :

« إن من واجبى أن أتصرف طبقاً لما يمليه على فكرى ، ولكن هل التصرف ملك لى ؟ » .

إن مأساة دى جريو هى مأساة أورست بطل مسرحية أندروماك لراسين حين يجد نفسه منقاداً لعاطفة عمياء لهرميون ، وعبثاً كان يحاول نسيانها أو مقاومة ما كتبته عليه الأقدار من لعنات . وهى كذلك مأساة « فيدر » بطلة المسرحية التى تحمل اسمها حين تحاول مقاومة العاطفة المحرمة وتتوسل إلى القدر أن يرحمها ، ولكن القدر حين يكتب شيئاً على الإنسان لا يرحمه ولا بد للإنسان من أن يطأطئ الجبين ويرضخ لما كتب عليه .

وهكذا نجد أن القس بريفو فى قصته « مانون ليسكو » قد انتحى نحو كبار الكتاب الكلاسيكيين ، وأنه قد عالج فى قالب قصصى أحد موضوعات مسرحيات راسين .

هذا هو الجانب الكلاسيكى لقصة « مانون ليسكو » أما الجانب الرومانسى فهو يتلخص فى أن القس بريفو قد أدخل فيها إيدلوجية تعتبر غريبة على العصر الذى عاش فيه ولن تظهر فى الأدب بوضوح إلا فى عصر الرومانسية . إن دى جريو يرى بصراحة أن عاطفته تغفر له جميع أخطائه . وهو يقارن بين السعادة التى يمنحها له الحب والجنة التى يعده بها الدين وتعده بها الأخلاق والمثل العليا فيجد أن سعادة الحب أسرع وأضمن وأحق بأن يعدو الإنسان خلفها وهو يقول فى ذلك : « إن الحب رغم أنه كثيراً ما يخدعنا إلا أنه يعدنى على الأقل بألوان من الرضا والسعادة بينما يطلب منى الدين أن أزاول ألواناً من الحزن والعذاب » . وهكذا نراه بهذه الأفكار التى يعبر عنها بعد تفكير وتأمل طويلين يحطم جميع الحواجز الدينية والخلقية والقيم التى ينشأ عليها المجتمع والأسرة . ونراه يتحدى اللعنات التى تنصب عليه من كل جانب ولكن الهزيمة تلحق به فى النهاية فيخر صريعاً ضحية لتمرده على قيم الدين والمجتمع وضحية لثورته النفسية . وهو بهذا كله يذكرنا برينيه بطل الكاتب شاتوبريان ، وهو من طليعة الرومانسيين ، إلا أن دى جريو أكثر واقعية من رينيه ولا يهيم مثله فى الخيال وإنما يستند فى عاطفته على الواقع . وهو يذكرنا كذلك بهرنانى بطل فيكتور هوجو ولكن فى صورة أبسط وأقل ضجيجاً . كما يذكرنا دى جريو ، ربما قبل رينيه وهرنانى ، بسان برو بطل قصة « هلويز الجديدة » لجان جاك روسو فى صراعه النفسى بين القيم الخلقية والاجتماعية وبين العاطفة التى لا تقاوم . وهكذا نرى أن القس بريفو فى قصته هذه قد سبق عصره وبشر من بعيد بما قبل الرومانسية وبالرومانسية .

وثمة أفكار أخرى جديدة أدخلها القس بريفو فى قصته لأول مرة فى تاريخ الأدب ، واعتبرها الرومانسيون من بعده من صميم دنياهم الأدبية . ومن

هذه الأفكار اختيار الفتاة الماجنة بطلة للقصة . فإذا تتبعنا تاريخ القصة فى الأدب الفرنسى ابتداء من العصور الوسطى حتى القس بريڤو نجد أنه هو أول من أعطى مثل هذا الدور لفتاة ماجنة ساقطة . فقد كانت القصة فى العصور الوسطى « كقصة الوردة » مثلا ، خيالية تجرى فى جو من نسج مخيلة الكاتب أو الشاعر ويغلب عليها تأثير ميثولوجيا اليونان أو الرومان : ففى قصة الوردة هذه يقص علينا جيللوم دى لوريس ، فى النصف الذى كتبه منها ، حلماً رآه . فهو يقترب من مملكة إله الحب التى يحيط بها سور مرتفع تزينه عشرة تماثيل هى : الكراهية والخداع والخسة والكذب والجشع والبخل والحسد والحزن والشيخوخة والفقر : وتقوده السيدة وازوز إلى حيث يجلس إله الحب وسط الحدائق الغناء فيرميه بخمسة من رماحه ويعدد له ما يطلب إليه تنفيذه من شروط . ثم يقترب الشاعر من الوردة ، وهى ترمز للحبيبة ، ويقوم على حراستها الخجل والخوف والخطر وسلاطة اللسان . ورغم نصائح سيدة العقل فهو يقترب من الوردة ويقبلها . وتوقظ سلاطة اللسان الغيرة التى كانت نائمة فتقيم قلعة تحبس فيها من تولى إرشاد الشاعر إلى مكان الوردة واسمه « الاستقبال الحسن » . وتنتهى القصة أو تتوقف بأن يسلم الشاعر نفسه لليأس دون أن يتمكن من اقتطاف الوردة :

وفى القرن السابع عشر يغلب على القصة طابع الحب بين الرعاة إلا أنه حب مثالى بين أناس لا يشبهون الرعاة فى شيء ويعيشون فى جو سحرى من نسج خيال المؤلف يقدس فيه الشاب حبيبته ويكرس حياته من أجل حبها وتحقيق جميع رغباتها ونزواتها . هذا بخلاف قصص الحب التى تجد فى قصور الأمراء والنبلاء مسرحاً وتصور دنياهم وتقاليدهم وحفلاتهم وسهراتهم كقصة « أميرة كليف » لمدام دى لافاييت ، أو قصص الحب المتكلف المتصنع التى كانت تكتبها سيدات مجتمع المتحذلقات كالآنسة دى سكودرى .

وفى القرن الثامن عشر ، وقبل نشر القس بريڤو لقصته « مانون ليسكو » ، يختار ماريڤو فى قصة « حياة ماريان » بطلته فتاة صغيرة من أصل عريق تنشأ نشأة فقيرة وتنتهى بعد سلسلة من المتاعب بمعرفة أصل أسرتها وتتزوج من شاب عريق مثلها كانت قد أحبته قبل أن ينكشف لها ماضى حياتها وتعرف من هى . وهكذا نرى أن أحداً قبل بريڤو لم يجعل من العاهرة بطلة لقصته :

والواقع أن مانون ليست عاهرة أو بغياً بالمعنى المتعارف عليه ، وإنما هى فتاة مستهترة بجميع القيم والمبادئ الخلقية ، يفشل أهلها فى توجيهها فيقررون إدخالها أحد الأديرة حتى يحولوا بينها وبين استمراء حياة الفساد . ولكنها تلتقى ، وهى فى الطريق إلى إلى الدير ، بدى جريو فتقرر للفور الهرب معه من هذا المصير الذى يدبره لها أهلها والذى كانت تراه بشعاً مشئوماً لا يتلاءم مع طبيعتها . فتهب تنسج حوله شباك إغرائها التى ما لبث الشاب الساذج أن وقع فيها. وهى رديئة المعدن وكأن الشيطان قد تجسد جسمها فأخضعه للشهوات وحب المال ، ولم يعرف قلبها الحب الحقيقى ونبل التضحية ولا يرتفع ويسمو إلا فى نهاية القصة . ومع ذلك فكما نرى ثمة تشابه كبير بينها وبين طبيعة البغى أو العاهرة مما حدا بالنقاد إلى الاعتقاد بأن الرومانسيين حين جعل بعضهم من البغى بطلة لقصصهم قد استوحوا هذه الفكرة من قصة « مانون ليسكو » . وقد استطاع القس بريڤو فى نهاية قصته أن يستدر عطف القراء ودموعهم على هذه الفتاة بعد أن تطهرت من دنس الشهوات وسمت نفسها بالحب الحقيقى ، كما أبدع فى وصفه المؤثر لميتتها وسط الصحراء العريضة القاحلة :

ولقد تأثر فيكتور هوجو بهذا الموضوع وجعل من العاهرة بطلة لبعض مسرحياته وقصصه كمسرحية « ماريون دى لورم » (١٨٣١) وقصته البؤساء (١٨٦٨) . إلا أنه حور موضوع هذه الأخيرة من فتاة مستهترة لا تستطيع مقاومة شهوات الجسد إلى بطلة تضعها المقادير فى ظروف قاسية ويدفعها الفقر دفعاً إلى بيع جسدها لإطعام طفلتها . كما التقط بلزاك هذا الموضوع وعالجه معالجة واقعية . وضمن قصصه التى أراد أن يعطينا فيها فكرة كاملة عن المجتمع فى عصره كرس إحدى قصص « الكوميديا الإنسانية » للعاهرات وهى : « بريق العاهرات وبؤسهن » . كما تبنى ألكسندر دوماس الابن فكرة العاهرة البطلة فى قصته المعروفة : « غادة الكاميليا » (١٨٥٢) ، فصور لنا فى أول القصة العاهرة مارجريت جوتييه فى الصورة المألوفة للعاهرة بجشعها واستهتارها وقلبها المتحجر . ثم ما تلبث أن تصادف الحب الحقيقى فترتد إليها طبيعتها الأولى وتتحول إلى امرأة أخرى طيبة القلب مخلصة تعرف معنى التضحية النبيل فتضحى بنفسها من أجل سعادة من تحب وتموت على فراش المرض وقد ارتفعت إلى أقصى ما يمكن أن ترتفع إليه النفس البشرية من سمو . ولقد كان ثمة إجماع لدى الكتاب الفرنسيين على أن البغايا وإن قست عليهن الظروف إلا أنها لم تجردهن من إنسانيتهن . فإذا ما تهيأت لهن الظروف الطيبة وصادفتهن القلوب الرحيمة المتسامحة ظهرت صفاتهن الطيبة من جديد . وفى هذا يقول ج . ميشليه : « إن النساء سافكات الدماء اللاتى ارتكبن عملا إجرامياً بدافع الغضب أو الغيرة لم يفسدن فساداً تاماً . فإذا أحسن استخدام ما لديهن من طاقة لوضعنها كلها فى الحب والأسرة وأصبحن نعاجاً حقيقية . وينطبق هذا الكلام على شهيدات أو قديسات الدعارة اللاتى خضعن لهذا المصير بدافع حبهن لأبنائهن أو لأداء واجبهن كأمهات ، من يعتقد أنهن قد تدنسن ؟ إن قلبهن المحطم والذى هو فى الحقيقة أنقى من أى قلب آخر متعطش إلى الشرف والحب ، وليس ثمة من هو أجدر منه بالحب »[1] . ويؤيده الكاتب المحدث رومان رولان فى هذه الفكرة نفسها ، فهو يرى فى قصته « النفس المسحورة » أن الإنسان مكون من جانبين : أحدهما نبيل وهو النفس والآخر وضيع وهو الجسد . فإذا تدنس الجسد أمكن تطهيره أما تدنيس النفس فهذا ما لا علاج له . وفى هذا تقول بطلة القصة آنيت ريفيير : « لقد دنست جسدى ويداى وإنى لأغسلهما فى عنف . أما قلبى فهو ما زال سليما لم يمس ولم يصل الوحل إليه »[2] .

ولقد تأثر كتاب القصة فى مصر منذ بداية هذا القرن بموضوع العاهرة بإمكان تحولها إلى امرأة فاضلة ، فكتب نجيب الحداد قصة « إيفون مونار » التى لاحظ الجميع لدى نشرها أوجه التشابه بينها وبين قصة فيكتور هوجو « البؤساء » ، إذ أن كلتا البطلتين ، فانتين فى « البؤساء » وإيڤون فى « إيڤون مونار » قد تعرضتا لإغراء أحد الشبان الذى ما لبث أن تخلى عنها ، وكانت ثمرة هذه العلاقة طفلة بريئة تضحى الأم بنفسها من أجلها . كما لاحظ الجميع تشابهاً بين تلك القصة وقصة « غادة الكاميليا » لالكسندر دوماس الإبن حيث أن كلتا البطلتين قد أعادها الحب الحقيقى إلى طريق الفضيلة والنبل والتضحية السامية .

ولقد أبدع القس بريڤو فى تصوير مانون فى آخر لحظات حياتها وهى تحتضر أمام عينى عاشقها دى جريو فنراه يقضى الليل إلى جوارها يحيطها بحنانه وعطفه وحبه عله يبعد عنها شبح الموت الرهيب . وتبذل هى أقصى ما فى جسدها المضنى من بقايا قوتها الزائلة لتتخفى

---

(١) ج . ميشليه « المرأة » ص ٤١١ ، ٤١٢ طبعة هاشيت .

(٢) رومان رولان « النفس المسحورة » ص ٤٩٥ ، طبعة ألبان ميشيل .

عنه آلامها ، ولكنها ما تلبث أن تلفظ آخر أنفاسها ، فيجلس إلى جانبها يتأملها وقد عزت عليه الدموع . ولولا خوفه من تعرض ذلك الجسد الحبيب المسجى أمامه ، والذى تجرد هو من ملابسه ليغطيه ، للتعفن والتحلل ، أو من اجتذابه للوحوش الضارية لما تردد فى الجلوس إلى جواره حتى يقضى هو الآخر نحبه ؛ وتبعث فيه هذه الأفكار العزم فيهب يحفر لحبيبته قبراً بأظافره يسجيها فيه ويغطيها بيديه بالرمال وهو يود لو كانت هى التى تقوم بالنسبة له بهذه المهمة البغيضة .

ولقد أعجب الرومانسيون ومن مهدوا لهم من أمثال جان جاك روسو وبرناردان دى سان بيير وشاتوبريان بهذه الميتة المؤثرة فأخذوا يتفننون فى وصف أمثالها استدراراً منهم لدموع قرائهم . فصور لنا روسو فى قصته « هيلويز الجديدة » البطلة وهى تغرق أمام أعين حبيبها وأولادها ، وصور لنا برناردان دى سان بيير فى قصته المعروفة « بول وفرجينى » البطلة فرجينى وهى تغرق فى اليم أمام عينى حبيبها بول الذى طال انتظاره لها وشوقه إليها . كما يعتبر مشهد دفن أتالا فى قصة « أتالا » من أبدع ما خط قلم شاتوبريان . وكذلك استطاع فيكتور هوجو أن يؤثر فى قرائه حين وصف احتضار فانتين فى قصة « البؤساء ». ومن الميتات الشهيرة كذلك ميتة مارجريت جوتييه فى قصة « غادة الكاميليا » إذ لفظت أنفاسها بين ذراعى حبيبها الذى هرع إليها فى اللحظة الأخيرة بعد أن عرف حقيقة موقفها منه وما قامت به من تضحية من أجله ، وبعد أن كان المرض قد نخر عظامها وحولها إلى شبح ذابل هزيل . ولعل محمد حسين هيكل قد تأثر بهذه الميتات لا سيما ميتة مارجريت جوتييه حين جعل بطلته زينب تموت بنفس مرضها وبعد أن أصبحت قاب قوسين أو أدنى من السعادة التى طال انتظارها لها .

وهكذا نرى أن قصة « مانون ليسكو » قد أثرت فى التراث الإنسانى تأثيراً كبيراً إذ انبثق منها تيار بعث حياة جديدة فى الأدب الفرنسى عامة وفى فن القصة خاصة ؛ فأصبحت العاطفة الجياشة المسيطرة التى يضعف البطلان أمامها وتعصف بكيانهما عصفاً هى المقوم الرئيسى للقصة بعد أن كانت لدى الكلاسيكيين ومن سبقوهم ومن تلوهم من كتاب القصة فى بداية القرن الثامن عشر من أمثال ماريفو حدثاً ضمن أحداث أخرى كثيرة وواحداً من أهداف الكاتب الروائى لا هدفه الرئيسى . كما أدخل القس بريفو فى قصته أفكاراً جديدة كوصف البلاد البعيدة واختيار العاهرة بطلة للقصة مما تأثر به كثير من أصحاب الأقلام الخالدين كما رأينا .

مقتطفات من قصة مانون ليسكو

ولعل فكرة القارئ عن قصة « مانون ليسكو » لا تكتمل وتصبح واضحة إلا لو قرأ مقتطفات من روائع ماخط القس بريفو فيها بوحى من عاطفته الصادقة ، وقد أطلق لقلمه العنان يعبر فى صراحة وبساطة عما يجيش فى نفسه من مشاعر فائرة متضاربة :

ففى النص الذى تجد ترجمته فيما يلى يقص علينا الفارس دى جريو كيف نجحت مانون فى إغرائه من أول مقابلة لهما :

« ورغم أنها كانت أصغر منى سناً فقد تلقت مجاملاتى دون أن تبدى أى شىء من الضيق بها ؛ وسألتها عما أتى بها إلى أميان، وعما إذا كانت تعرف أحداً بهذه المدينة . فأجابت فى لباقة بأن والديها أرسلاها إليها لكى تصبح راهبة . وكان الحب الذى غزا قلبى منذ لحظة قد جعلنى أرى الأمور بوضوح ، فرأيت فى هذه الخطة ضربة قاضية لجميع أمانى ورغباتى . وتحدثت إليها بطريقة جعلتها تفهم مشاعرى إذ أنها كانت تفوقنى كثيراً فى التجارب : لقد أرسلوها رغم إرادتها إلى الدير ، وهذا بلا شك لوضع حد لميولها إلى اللهو التى كانت قد تبدت والتى تسببت فيما بعد فى كل ما أصابها

وأصابنى من تعاسة . ولقد قاومت نوايا أهلها القاسية بجميع الحجج التى استطاع أن يمدنى بها حبى الوليد وبلاغتى التى كونها الفلاسفة وعلماء اللاهوت . ولم تبد هى أى شدة أو ازدراء . وقالت لى بعد لحظة من الصمت إنها تتنبأ بأنها سوف تكون شديدة التعاسة ، إلا أنه يبدو أن تلك هى إرادة السماء ما دامت لا تترك لها أى وسيلة لتجنبها . ولم تدع لى رقة نظراتها ومسحة الحزن الساحرة التى كست وجهها وهى تنطق بهذا الكلام مجالا للتردد لحظة فى إجابتى ؛ أو ربما كان الدافع لذلك هو قدرى الذى كان يجرنى إلى الضياع . وأكدت لها أنها لو أرادت التحقق من صدقى ومن العطف الذى لا حد له الذى توحى إلى به لكرست حياتى لتخليصها من طغيان أهلها ولإسعادها . وكلما فكرت فيما بعد فى ذلك أصابتنى الدهشة : إذ من أين أتتنى كل هذه الجرأة والسهولة فى التعبير عما يجيش فى نفسى . ولكن لو لم يكن الحب يحقق المعجزات لما اتخذوه إلهاً » .

وتخون مانون حبيبها ويدبر أبوه خطة لاختطافه وإعادته إلى بيت الأسرة . ويمضى دى جريو عاماً فى باريس بعيداً عنها . ويتقدم إلى الجامعة لمناقشة بحث أعده فى اللاهوت فتحضر مانون المناقشة ضمن من حضرنها من سيدات المجتمع . ولندع دى جريو يقص علينا تلك القصة بنفسه :

« كنت قد قضيت فى باريس حوالى العام دون أن أستفسر عن أخبار مانون . ولقد كلفنى كثيراً فى أول الأمر أن أعامل نفسى بكل هذا العنف . إلا أن نصائح تيبرج الدائمة وتفكيرى أنا نفسى ، كل هذا جعلنى أنتصر على آلامى . ومرت الأشهر الأخيرة فى هدوء حتى أننى اعتقدت أننى على وشك نسيان تلك المخلوقة الرائعة الخائنة إلى الأبد . وحان وقت مناقشة بحث عام فى مدرسة اللاهوت ، فرجوت كثيراً من الشخصيات المحترمة أن يشرفونى بحضورهم . وهكذا انتشر اسمى فى جميع أحياء باريس وبلغ أذنى حبيبتى الخائنة : ولم تكن مانون متأكدة منه بعد أن أصبح مقروناً بلقب القس ، إلا أن بقية من حب الاستطلاع أو بعض الندم على خيانتها لى (ولم أستطع أبداً أن أتبين أى هذين الشعورين هو الذى دفعها) جعلاها تهتم بذلك الإسم شديد الشبه باسمى . فحضرت إلى السوربون مع غيرها من السيدات لحضور مناقشة بحثى . .

ولم أدر شيئاً عن هذه الزيارة إذ من المعروف أنه توجد مقصورات خاصة بالسيدات فى هذه الأماكن يختفين فيها وراء حواجز . وعدت إلى دير سان سوبليس وقد غمرنى المجد والتقريظ . وكانت الساعة السادسة مساء . وبعد لحظة من وصولى أخبرت بأن هناك سيدة تريد مقابلتى . وتوجهت فوراً إلى قاعة الاستقبال . يا إلهى ! أية رؤية مذهلة تلك ! لقد وجدت بها مانون . لقد كانت هى ، ولكنها كانت أجمل وأكثر بريقاً مما رأيتها من قبل . لقد كانت فى ربيعها الثامن عشر ، وتعدى سحرها كل ما يمكن وصفه . وكانت سماتها تعبر عن الرقة والوداعة والجاذبية ! كانت سمات الحب نفسه . لقد بدا لى وجهها كله كما لو كان عملا سحرياً .

وتملكنى الارتباك لدى رؤيتها . ولما كنت لا أستطيع الحدس بسبب تلك الزيارة فقد انتظرت وأنا أغض الطرف وأرتعد أن تفصح هى عن السبب . إلا أن ارتباكها كان لبعض الوقت معادلا لارتباكى . ولما رأت أن صمتى قد طال وضعت يدها على عينيها لتخفى بعض الدموع . وقالت لى فى خجل إنها تعترف بأن خيانتها تستحق كرهى ، ولكن لو كان صحيحاً أننى شعرت نحوها فى يوم ما بالود فقد كان كذلك ثمة قسوة فى تركها عامين دون أن أعنى بالسؤال عن مصيرها ، وأن هناك مزيداً من القسوة فى رؤيتها أمامى بحالتها التى

توجد فيها دون أن أوجه إليها كلمة واحدة . ولقد كان اضطراب نفسى وأنا أستمع إليها لا يمكن وصفه .

وجلست وظللت أنا واقفاً وقد استدرت نصف استدارة دون أن أجرؤ على مواجهتها مباشرة . وشرعت عدة مرات فى إجابات لم أجد القوة على إتمامها . رأخيراً بذلت جهداً كبيراً لأصيح فى ألم : « أيتها الخائنة مانون ! أيتها الخائنة ! أيتها الخائنة ! » وكررت لى وهى تذرف الدمع السخين أنها لا تدعى تبرير خيانتها . فصحت فيها قائلا : « فماذا تدعين إذن ! ؟ » فأجابت : « إننى أدعى الموت إذا لم ترد إلى قلبك الذى لا أستطيع الحياة بدونه » . فقلت لها وأنا أذرف أنا نفسى دموعاً حاولت عبثاً حبسها : « اطلبى إذن حياتى أيتها الخائنة ، اطلبى حياتى إذ هى الشىء الوحيد الذى أستطيع أن أضحى به من أجلك لأن قلبى لم يكف لحظة عن أن يكون لك » .

ومن أروع ما كتب القس بريفو فى هذه القصة ، كما قدمنا ، وصفه لميتة مانون وسط الصحراء . فلنتركه يقص علينا آلامه بهذه المناسبة ويترك العنان لقلمه فينقل إلى قلوبنا كل ما قاساه من عذاب :

« وظللنا نسير ما استطاعت مانون المسير أى ما يقرب من فرسخين ، وذلك لأن هذه الحبيبة التى لا مثيل لها كانت ترفض دواماً التوقف قبل ذلك . ولما أضناها التعب آخر الأمر اعترفت لى بأنه من المستحيل عليها مواصلة المسير . وكان الليل قد أرخى سدوله فجلسنا وسط سهل فسيح دون أن نجد شجرة نستظل بظلها . وكان أول همها هو تغيير ضمادة جرحى ذلك الجرح الذى تولت هى بنفسها تضميده قبل رحيلنا وعبثاً حاولت الاعتراض على رغبتها . ولو أننى رفضت أن أحقق لها الرغبة فى أن ترانى فى راحة وبعيداً عن الخطر قبل أن تفكر فى حياتها هى لقضيت عليها . فاستسلمت حيناً من الوقت لرغباتها وتلقيت رعايتها لى فى صمت وخجل .

ولكن بعد ما انتهت من إشباع حبها لى ، كيف لا يتدفق حبى لها بدوره حاراً ! لقد تجردت من ثيابى كلها حتى تصبح الأرض بالنسبة لها أقل خشونة بأن فردتها تحتها . وجعلتها توافق رغماً عنها فى أن أتحمل من أجلها كل ما أستطيع تصوره من متاعب . وأخذت أدفئ يديها بقبلاتى الملتهبة وبأنفاسى الحارة . وقضيت الليل بطوله ساهراً إلى جوارها أتوسل إلى السماء أن تجعلها تنام نوماً هادئاً لذيذاً . يا إلهى ! كم كانت توسلاتى حارة ومخلصة ! . . .

ولتصفحوا عنى إذا كنت أختم فى كلمات قليلة قصة ذكرها يقتل نفسى قتلا . إننى أقص عليكم مأساة لا مثيل لها من قبل . إن حياتى كلها قد كرست للبكاء عليها . ولكن رغم أنى أحمل تلك المأساة دواماً فى ذاكرتى إلا أن نفسى تتراجع فى ارتياع كلما حاولت الكلام عنها .

وكنا قد قضينا ردحاً من الليل ، وظننت أن حبيبتى العزيزة قد نامت فلم أكن أجرؤ على مجرد التنفس خوفاً من إقلاق نومها . ولاحظت لدى أول خيوط النهار وأنا ألمس يديها أنهما باردتان مرتعدتان : فقربتها من صدرى لتدفئتهما . ولما شعرت هى بهذه الحركة قالت لى بصوت ضعيف وهى تبذل جهداً لاستبقاء يدى فى يديها بأنها تعتقد أنها فى ساعتها الأخيرة

ولم أفهم هذا الحديث فى أول الأمر إلا على أنه تعبير عادى وقت المحنة ، فلم أجب عليه إلا بتشجيعات الحب الحنونة . إلا أن تنهداتها المتكررة وصمتها إزاء استفساراتى وانقباضات يديها اللتين واصلتا الاحتفاظ بيدى ، كل ذلك أفهمنى أن نهاية آلامها تقترب .

لا تطلبوا منى أن أصف لكم مشاعرى أو أن أنقل إليكم آخر ما قالت . لقد فقدتها وهذا هو كل ما أجد القوة لذكره لكم من هذا الحدث المشئوم المفجع .

ولم تتبع روحي روحها . لا بد أن السماء لم تجد بعد أنني نلت ما أستحق من عقاب . لقد أرادت أن أحيا منذ ذلك الوقت حياة مملة بائسة . ولقد رفضت بإرادتي أن أجعلها أكثر سعادة .

وظللت أكثر من أربع وعشرين ساعة وقد التصق فمي بوجه عزيزتي مانون وبيديها . لقد كانت خطتي أن أموت معها . إلا أنه في بداية اليوم الثاني رأيت أن جسدها قد يتعرض بعد موتي لأن يصبح طعاماً للوحوش الضارية . فقررت دفنها وانتظار الموت بجوار قبرها . ولقد كنت قريباً من نهايتي لما كان قد انتابني من ضعف بسبب الصوم والألم ، حتى أنني كنت في حاجة إلى جهد جهيد لكي أظل واقفاً على قدمي . واضطررت إلى اللجوء إلى المشروبات القوية التي كنت قد حملتها معي . وأعادت إلى تلك المشروبات من القوة ما يكفي للمهمة التعسة التي أزمعت القيام بها وصار من اليسير على حفر الأرض في ذلك المكان الذي كنت فيه ، فقد كان سهلا من الرمال . وكسرت سيفي لاستخدامه في الحفر ولكني وجدت في يدي من العون أكثر مما في السيف . وحفرت حفرة كبيرة وسجيت فيها إلهة قلبي بعد أن لففتها بجميع ملابسي حتى لا تمسها الرمال . ولم أضعها في هذا الموضع إلا بعد أن قبلتها آلاف المرات بكل ما في قلبي من حرارة وحب خالص . ثم واصلت الجلوس إلى جوارها وأخذت أتأملها طويلا غير قادر على تقرير إغلاق القبر . وأخيراً عاد الضعف ينتاب قواي . وخشيت أن تخونني قوتي قبل أن أنتهي من مهمتي فدفنت في قلب الأرض أكمل وأجمل من أنجبت من المخلوقات . ثم رقدت بعد ذلك على القبر وقد اتجه وجهي جهة الرمال . وأغمضت عيناي بغية عدم فتحهما أبداً ودعوت السماء أن تشد أزري وانتظرت الموت بفارغ الصبر » .

تلك مقتطفات من أجمل ما كتب القس بريفو في قصة « مانون ليسكو » . ولعل ترجمتها تنجح في نقل تلك المشاعر والأحاسيس الجياشة الفائرة إلى القلوب كما يفعل النص الأصلي .

وقد كتب القس بريفو قصته هذه في أسلوب بسيط خال من كل تنميق وتكلف . لقد فتح قلبه لقرائه وتركه يتكلم على سجيته ولذا فقد اتجه ما خطه رأساً إلى قلوب القراء وحازت القصة نجاحاً كبيراً سواء في حياته أم بعد مماته ، هذا رغم أن كتابات القس بريفو الأخرى تتسم بالتكلف والصنعة . وفي هذا يقول الناقد سانت بيف : « إن ميزة الأسلوب هو أنه من السلاسة والسهولة بحيث يمكننا القول بأنه ليس هناك أسلوب على الإطلاق » وإن كان بعض الكتاب ، مثل فلوبير ، قد عاب هذه البساطة على القس بريفو إذ قال : « أما أنا فأحب الأشياء الأكثر تتبيلا وبروزاً وأرى أن جميع الكتب التي في المرتبة الأولى متبلة هكذا تتبيلا شديداً » إلا أن النقاد قد أجمعوا على أن تلك البساطة والسلاسة هي من أهم مقومات نجاح تلك القصة ، كما أنها كانت مثلا يحتذى لمن تلا القس بريفو من أعلام كتاب القصة ، فابتعدوا عن التكلف والزينة والصنعة واعتمدوا على البساطة التي يحدوها الصدق والإخلاص .

وهكذا نرى أن قصة « مانون ليسكو » للقس بريفو هي من أجمل القصص الإنسانية الخالدة سواء من ناحية الموضوع أو الشخصيات أو السرد القصصي أو الأسلوب . ولم يتأثر القس بريفو بأي كاتب آخر وهو يكتب قصته تلك إذ كتبها قبل أن يترجم « باميلا » و « كلاريسا هارلو » لريتشاردسون . إنما استوحاها من عاطفته الشخصية الحية ومشاهداته وتأملاته ، ولذا أتت تحفة في الصدق والإخلاص وأثرت في الكتاب وفي الحركة الأدبية عامة وتاريخ القصة خاصة ، كما اعتبرت أثراً من آثار الإنسانية الخالدة .